إيمان نوح في وجه طوفان العنف: رسالة للمسيحيّين في الشرق الأوسط اليوم

القسّ
هادي غنطوس
دكتور في
العلوم البيبليّة

مقدّمة

مما لا شكّ فيه أنّ قصّة نوح والطوفان هي من أشهر قصص الكتاب المقدّس. فحتّى من لا يعرفون أي شيء تقريبًا من الكتاب المقدّس سبق لهم وسمعوا شيئًا ما حول قصّة طوفان أغرق العالم وشخص بنى فلكًا وجمع في داخله حيوانات من كلّ الأنواع. ومما لا شكّ فيه بأنّ قصّة نوح والطوفان هي من أكثر الموضوعات المثيرة للجدل في الكتاب المقدّس. فكيف تمكن نوح قبل ما يزيد على الألف سنة على بداية العصر الحديديّ أن يبني فلكًا بمثل هكذا حجم بدون أن يمتلك أبسط الآلات الضروريّة لذلك(BLUMEN-THAL 2012, 89) ؟ وكيف أمكن وضع كلّ تلك الحيوانات في فلك لا يكفي حجمه المذكور في الكتاب المقدّس (تك ٦: ١٦) لاستيعاب جزء صغير من تلك الحيوانات؟ وكيف نفسّر عجز العلم عن إيجاد أي شيء يؤكّد إمكانيّة حصول طوفان عظيم غطى كلّ الأرض وقضى على الحياة فيها في التاريخ، سواء في الزمن الذي من المفروض أنّ طوفان نوح قد حصل فيه أو في أي زمن آخر؟ ولماذا يعجز علم الآثار عن تأكيد وجود بقايا فلك نوح على جبل آراراط؟ بالإضافة لكلّ ذلك، هل أخذ معه نوح زوجًا من كلّ نوع من أنواع الحيوانات دون تمييز (٧: ٨-٩) أم زوجًا من كلّ نوع من الحيوانات غير الطاهرة وسبعة أزواج من كلّ نوع من الحيوانات الطاهرة ومن الطيور (٧: ٢-٣)؟ وكم استمرّ الطوفان على الأرض، أربعين يومًا (٧: ١٢، ١٧) أم مئة وخمسين يومًا (٧: ٢٤)؟ وفي النهاية، ماذا عن التشابه الكبير بين قصّة طوفان نوح وقصص الطوفان الشهيرة في الحضارات المحيطة وعلى رأسها قصّة جلجامش وأتراحازيز، والتي تمتلك الكثير من نقاط التشابه مع قصّة الطوفان الكتابيّة وتسبقها بتاريخ كتابتها(*COS1* 1997, 450-453, 458-460) ؟

في كلّ الأحوال، لن يهتم هذا البحث بإثبات أو دحض نظريّة حصول الطوفان من عدمها، أو حتّى بالإجابة على الأسئلة التي طرحناها للتو. لكن هذا البحث سيقوم بالتعامل

مع قصّة نوح والطوفان كما تقف في كتابنا المقدّس، والرسالة التي تحملها لنا اليوم كمسيحيّين شرق أوسطيّين في وجه طوفان العنف الذي يغرقنا ويغرق منطقتنا.

أسـباب الطوفـان

لا شك بأنّ طوفان نهري الفرات ودجلة الذي كان يحصل بشكل متكرّر ويغرق كلّ عالم المزارعين الذين كانوا يعيشون على ضفافهما إنّما يقف وراء قصّة جلجامش وقصّة أتراحازيز كما يقف وراء قصّة الطوفان الكتابيّة. لكن الكتاب المقدّس يعلن لنا أنّ الطوفان الذي تشير إليه قصّة نوح إنّما يتجاوز ذلك.

ففي الوقت الذي تعلن فيه تكوين ٦: ٥-٦ أنّ الربّ يتأسّف على أنّه عمل الإنسان، وذلك لأنّ شرّ الإنسان قد كثر في الأرض، تعلن تكوين ٦: ١١-١٣ أنّ الأرض امتلأت ظلمًا أمام الربّ. أي أنّ شرّ الإنسان الذي كثر وملأ الأرض إنّما هو ظلم الإنسان وعنف الإنسان ضدّ بشر آخرين هم أيضًا مخلوقون على صورة الله كمثاله والذي تحول إلى طوفان قد أغرق الأرض.

وعلينا أن ندرك هنا أنّ الكلمة العبريّة «حَمَس» (٦: ١١) المستخدمة في تحديد سبب الطوفان تحمل في نفس الوقت معنى «العنف»، كما تحمل معنى «الكاذب» أو «الشهادة الكاذبة أمام القضاء»، أي أنّ كلا المعنيَين يحملان معنى كسر العدالة والظلم (BLUMENTHAL 2012, 91) .

وعلينا ألا ننسى هنا أنّ التقليد الكهنوتيّ الذي يقف وراء قصّة طوفان نوح قد كتب حوالى سنة ٥٢٠ ق. م.، وهو تاريخ تلا فترة اضطرابات وهزات عنيفة في المنطقة أغرقت «العالم بأسره» في طوفان من العنف والظلم وغياب العدالة، حيث دُمرت أشور في العام (٦١٢ ق. م.) ودُمرت أورشليم في العام (٥٨٦ ق. م.) على أيدي البابليّين، ومن ثم سقطت المملكة البابلة بذاتها على أيدي الفرس (٥٣٩ ق. م.).

بركة و«بِريت»

مع نهاية الطوفان، تتضمّن قصّة نوح العديد من نقاط التشابه مع قصّة الخلق الأولى

(تك ١: ١ – ٢: ٣)، وبشكل يظهر بوضوح أنّ الطوفان إنّما قد قاد إلى الحصول على خليقة جديدة(STREETT 2007, 38) . حيث يرسل الله ريحًا على المياه وفصل الأرض اليابسة عن المياه (٨: ١ // ١: ٢ب، ٩). ويخرج نوح ومن معه من الفلك لتبدأ معهم وبهم رحلة خليقة جديدة على الأرض. يمثل نوح وعائلته الإنسان الأوّل ومعهم الجيل الأوّل من خليقة جديدة تبدأ حياتها على أرض «جديدة». ويبارك الله تلك الخليقة الجديدة ببركة مشابهة لبركته لها في قصّة الخلق الأولى، نفس البركة للنمو والتكاثر (تك ٩: ١، ٧ // ١: ٢٨). التغيير الوحيد الذي حدث هو السماح للإنسان الآن بأن يأكل الحيوانات، أي حيوان، بشرط ألا يأكل الإنسان دمًا. يصبح الدم هنا رمزًا للحياة. قتل الحيوانات هو أمر مسموح فقط من أجل الطعام. والعنف يجب ألا يتجاوز حدوده ودرجاته الدنيا تجاه كلّ الخليقة ومهما كانت الظروف.

لكن الخليقة الجديدة وبركة الله لها ليست الكلمة الأخيرة في قصّة الطوفان. حيث تنتهي قصّة الطوفان كما أوردها التقليد الكهنوتيّ بإعطاء علامة «البِريتْ» الأوّل، والذي يترجم خطأً بكلمة ميثاق. فـ «البِريتْ» في المبدأ ليس اتفاقًا بين طرفين متكافئين، ولكنه أصلاً معاهدة اعتاد الملوك الآشوريّون أن يفرضوها على ملوك الممالك الصغيرة التي كانوا يسيطرون عليهان وتضمن خضوع أولئك الملوك وممالكهم للامبراطوريّة الآشوريّة. وكان كسر أي بند من بنود المعاهدة يعتبر بمثابة الخيانة التي يعاقب عليها الملوك الخاضعين بشدّة، حيث يتمّ غزو ممالكهم وإنهاء ملكهم واستبدالهم بملوك آخرين يخضعون لبنود الاتفاق المفروض. ونحن نجد بعض الأمثلة على هذا النوع من المعاهدات وعقوبة كسرها في كتاب الملوك وكتاب أخبار الأيّام (١ مل ١٤: ٢٥–٢٨؛ ١٥: ١٨–٢١؛ ٢٠: ١–٤؛ ٢ مل ١٢: ١٧–١٨؛ ١٨: ١٣–١٦). ونحن نجد في سفر التثنية، الذي يتبنّى فكرة هذا النوع من المعاهدات أو «البِريتْ» ليحكم العلاقة بين يهوه وإسرائيل، الكثير من اللوائح التي تحمل مختلف التعليمات والواجبات التي يجب أن يحفظها اليهود بشدّة ليرضوا الله ويتجنبوا نار غضبه الحارقة. ويمثل العهد التثنوي مثالاً واضحًا لذلك الفهم لعلاقة العهد بين الله وشعبه (تث ٢٧ – ٣٠).

ولكن «البِريتْ» الذي يقيمه الله مع نوح هو طبيعة مختلفة تمامًا؛ فالله لا يضع واجبات وتعليمات لنوح ولكنه يأخذ الواجب والمسؤوليّة على نفسه ويتعهد بأنّه لن يخرب الأرض مرّة أخرى. بكلمات أخرى، يتعهّد الله بألا يسمح للعنف بأن يغمر الأرض يقضي على الحياة عليها. ويعلن الله أنّ القوس المعلق في السحاب، أي قوس قزح الذي يظهر في كلّ

مرّة تمطر فيها السماء، هو علامة ذلك العهد. لكن هذا القوس وقبل أن يفسّر كقوس قزح يشير إلى قوس الحرب الذي كان الآشوريّون يؤمنون بأنّ آلهتهم يعطونه لملوكهم قبل أي حملة عسكريّة. وبالتالي فالله يكسر قوس الحرب الذي يجلب الموت والدمار ويجعل من القوس رمزًا للحياة ونصرة الحياة.

قوس الحرب
الإلهيّ الآشوريّ

وهذا «البِريتْ» الذي يقطعه الله مع نوح يتمتع بثلاث صفات لا تصدق: عهد نعمة لا مشروط، أبديّ، وعالميّ أي لكلّ الكون ولكلّ الشعوب. قيمة واستمراريّة عهد الله مع نوح لا تعتمد على تصرفات الإنسان بل على الله نفسه، ولهذا يستطيع الله أن يؤكّد أنّ هذا العهد أبديّ. ودعونا نتذكر هنا أنّ علامة العهد، قوس قزح، هي شيء خارج عن سيطرتنا وإرادتنا، يظهر من تلقاء نفسه في كلّ مرّة تمطر فيها السماء، ليذكرنا بالعهد الذي يتخذه الله على ذاته. وهذه هي النعمة التي لا تعتمد على استحقاقنا أو على أي شيء نقوم به، بل على شخص الله ونصرة الحياة مع الله، حتّى عندما تبتلع الفوضى الأرض.

نقاط هامّة في تفسير القصّة

إذا كانت قصّة نوح تبدأ بطوفان سببه العنف يقضى على الحياة، وتنتهي بخليقة جديدة يباركها الله ويصنع عهد نعمة أبديّ معها، فإنّ تفسير العديد من التفاصيل في القصّة يصبح ممكنًا ومتاحًا بطريقة تساهم في فهم القصّة والرسالة اللاهوتيّة الهامّة التي تعلنها:

اسم نوح يعني «راحة» أو «تعزية» (KIKAWADA 1992, 1123) ، أي أنّ نوح يمثّل مجيء الراحة بعد طوفان العنف والدمار والموت خلال الأمبراطوريّتين الآشوريّة والبابليّة.

تعلن القصّة أنّ الطوفان قد حصل نتيجة لاختلاط المياه فوق السموات والمياه تحت السموات مع بعضهما وغمرهما لليابسة (تك ٧: ١٠-١١). وبالتالي فالقصّة تشير إلى

عودة الكون إلى مرحلة ما قبل الخلق التي كانت تسيطر عليها الفوضى، والتي قام الله بتنظيمها وفصلها في عمليّة الخلق (تك ١: ٦-١٠)(STREETT 2007, 37). وذلك يضع الأرضيّة لانطلاق الخليقة الجديدة في رحلة حياتها ببركة الله وعهده.

يحصل الطوفان في السنة الستماية من عمر نوح (تك ٧: ١٠)؛ وذلك ليس مجرّد تفصيل بسيط. فعمر نوح هو ستة، والتي تمثل رقم الشرّ واللعنة في الشرق الأدنى القديم (رؤ ١٣: ١٨)، مكرّرة عشرة في عشر مرّات، والتي تمثل رقمًا من أرقام الكمال. فالطوفان يحصل عند اكتمال اللعنة والشرّ.

من جهة أخرى، ينتهي الطوفان وتظهر اليابسة من جديد في اليوم الأوّل من الشهر الأوّل من السنة الأولى بعد الستماية من عمر نوح (تك ٨: ١٣)؛ وما هذا إلا رمز للخليقة الجديدة والبداية الجديدة لرحلة تلك الخليقة في رحلة حياتها مع الله.

تعلن القصّة أنّ الفلك قد استقر على جبال أراراط (تك ٨: ٤)؛ الأمر الذي عجز علم الآثار عن إيجاد ما يثبت حصوله. لكن المغزى من ذلك يوجد في مكان آخر، حيث أنّ الاسم «أراراط» يشتق من الجمع بين كلمة «إريره» أو «أريره» والتي تعني «لعنة»، وكلمة «يارات» والتي تعني «متوقفة أو معكوسة أو منهيّة». وبالتالي فالفلك الذي اجتاز طوفان العنف الذي حصل عند اكتمال الشرّ واللعنة، يستقر حيث تنتهي اللعنة وتبدأ البركة والعهد(BLUMENTHAL 2012, 90-91) .

من الملفت للنظر أنّه ورغم أنّ الحمامة تؤكّد لنوح بأنّ الأرض قد جفت، إلا أنّه لا يغادر الفلك حتّى يأمره الله بذلك (تك ٨: ١٣-١٩)(Tuller KEITER 2012, 264). لا بل تقدم القصّة الله على أنّه هو من يسيطر على الخليقة. فهو من يصنع الطوفان والفلك، ليدمّر الخليقة التي خلقها هو، وينقذ منها بقية؛ وهو من يأمر نوحًا بمغادرة الفلك، لأنّه هو المسيطر؛ وهو من يأمر بالبركة لبدء خليقة جديدة وملء الأرض من جديد(BYRNE 2013, 332-334) .

تفسير قصّة نوح والطوفان

انطلاقًا مما سبق، تكتسب قصّة طوفان نوح تفسيرًا مميزًا وتحمل رسالة لاهوتيّة هامّة. فالقصّة لا تتحدّث عن طوفان ماء أغرق الكون، ونجا منه شخص محدّد وعائلته

مع ممثِّلين لجميع الحيوانات في فلك استقر على جبال آرارات، حيث أنّ أي تفسير حرفيّ للقصّة يحمل العديد من المشاكل ويفقد القصّة الكثير من غنى رسالتها اللاهوتيّة(BLUMENTHAL 2012, 89).

لكن القصّة التي تعتمد على قصص الطوفان الآشوريّة-البابليّة (جلجامش وآتراحازيز)، وتنطلق من الطوفان المتكرّر لنهري الفرات ودجلة والذي كان يغرق «كلّ عالم» من يعيشون على ضفافهما، تتحدّث في العمق عن طوفان العنف الذي أغرق الشرق الأدنى القديم، وقاد، فيما قاد إليه من نتائج كارثيّة للمنطقة بأسرها، إلى دمار أورشليم والهيكل وسبي شعب الله. القصّة تتحدّث عن الشرّ الذي ملأ الأرض والمتمثل بظلم الإنسان لأخيه الإنسان والذي أصبح بحاجة لطوفان يغسل الأرض من الشرّ والعنف الذي ملأها وجعل الفوضى تسيطر على الخليقة.

وتعلن القصّة أنّ الله، وعند اكتمال الشرّ واللعنة، يختار أن يصنع راحة في قلب ذلك الشرّ والعنف ويخلق خليقة جديدة من قلب تلك الفوضى لمن يؤمنون به. فيعلن صنعه لفلك يقود شعبه نحو تلك الراحة وتلك الخليقة الجديدة. ويعلن نهاية اللعنة، ويعلن بركته على الخليقة الجديدة ويصنع معها عهد نعمة أبديًّا عالميًّا لا مشروطًا ينبع ويعتمد على الله ذاته ويشمل كلّ الكون، يكسر قوس الحرب ويستبدله بقوس السلام، ويؤكّد نصرة الحياة والخليقة على الشرّ والموت والفوضى. ويدعو الإنسان للإيمان وللثقة بذلك حتّى في وسط طوفان الشرّ والعنف والفوضى.

ودعونا نشير هنا إلى أنّ الكتاب المقدّس نفسه يتبنّى هذا الفهم والتفسير لقصّة طوفان نوح. فعلى سبيل المثال لا الحصر، يستخدم سفر أشعيا قصّة طوفان نوح كصورة للعنف الذي دمّر أورشليم والهيكل، وأدّى إلى السبي (٥٩٨، ٥٨٦ ق. م.)، كما يستخدم صورة انتهاء الطوفان والخليقة الجيّدة وعهد النعمة الأبديّ الذي يصنعه الله بعده كمصدر للرجاء لشعب الله ودعوة للثقة بالعودة والخليقة الجديدة التي سيصنعها الله بعهد نعمته الأبديّ في قلب ذلك الدمار والسبي (أش ٢٤؛ ٥٨)(STREETT 2007, 42-43, 46-49).

رسالة نوح للمسيحيّين في الشرق الأوسط اليوم

تحمل قصّة طوفان نوح رسالة مهمّة لنا كمسيحيّين شرق أوسطيّين في وجه طوفان العنف الذي يغرق منطقتنا وعالمنا اليوم. وتدعونا قصّة طوفان نوح لإدراك وتجسيد عدّة

أمور إيمانيّة أساسيّة إذا ما كنا ندعي أنّنا شعب الله ونريد أن نستحق أن ندعى على اسم من نكنى باسمه، يسوع المسيح. ودعوني ألخص أهمّ تلك الأمور في النقاط التالية:

تدعونا قصّة طوفان نوح لندرك أنّ العنف هو الطوفان الحقيقيّ الذي يدمر الحياة. طوفان نوح يظهر لنا أنّ شرنا نحن لا غضب الله هو الذي يدمر خليقة الله ويهدد بالقضاء عليها، وأنّ عنف الإنسان ضدّ أخيه الإنسان كما ضدّ خليقة الله هو التجسيد الأوضح لذلك الشرّ المدمّر. وبالتالي تدعونا القصّة لنرى في العنف الذي يغرق منطقتنا تجسيدًا جديدًا للطوفان الذي واجهه نوح.

لكن قصّة طوفان نوح تدعونا لندرك أنّ الله الذي خلق هذا الكون إنّما هو إله حي، يمتلك السيطرة والكلمة الأخيرة، ويتعهد بأن يحفظ خليقته الحسنة جدًا التي خلقها وألا يسمح للفوضى بالتغلب على الخليقة وللشرّ والعنف بالتغلب على الحياة. فذلك الإله يغسل الشرّ، ويصنع فلكًا في وسط طوفان العنف، ويقود خليقته نحو بداية جديدة. وذلك هو الإيمان الذي علينا أن نتمسك به في كمسيحيّين شرق أوسطيّين في وسط طوفان العنف والدمار، مؤمنين وواثقين بأنّ النصرة والكلمة الأخيرة هي لإلهنا ولمحبّته وللحياة التي تصنعهما تلك المحبّة ولا نفقد الثقة والرجاء مهما ارتفعت المياه.

قصّة طوفان نوح تدعونا لندرك بأنّ عهد الله معنا هو عهد نعمة لا مشروطة، لا يعتمد على استحقاقنا نحن، وأنّه عهد عالميّ وأبديّ. وبالتالي لندرك أنّنا قبل غيرنا في أمس الحاجة إلى نعمة ومحبّة الله تشمل الجميع وتدعونا لنرى وجه الله في الجميع ونشارك محبّة الله مع الجميع.

تعلن لنا قصّة طوفان نوح أنّ الله يتعهّد بكسر قوس الحرب والعنف وتحويله إلى علامة سلام ونمو، ويدعونا لنكون رسلاً لذلك. قصّة الطوفان تدعونا لنكون رسل حياة وسلام ومحبّة في وسط الفوضى والشرّ والعنف، ولندرك أنّنا مدعوون لا لنهرب من الشرّ بل لنواجه الشرّ بالمحبّة التي تغلب الموت بالموت والتي هي سلاحنا الوحيد في مواجهة كلّ شرّ وعنف وسلاح، مؤمنين وواثقين أنّ النصرة الأخيرة هي للحياة التي تنبثق من قلب الموت.

في النهاية، تتحدانا قصّة طوفان لكي تكون كنائسنا فلكًا لكلّ الخليقة في وسط طوفان العنف. تتحدانا قصّة الطوفان لكي نجعل من كنائسنا شهادة حيّة على الإيمان والرجاء والحياة لكلّ المتألّمين في وسط الشرّ والعنف والموت التي تملأ حياتنا ومحيطنا وتغرق

عالمنا، متذكّرين أن اتخاذ الكنيسة لصورة الفلك هو إعلان صريح لتلك الدعوة.

المراجع

BLUMENTHAL, Fred

2012 'Noah's Ark as a Metaphor', *Jewish Biblical Quarterly* 40/2: 89-92.

BYRNE, Máire

2013 'Comparative Theology and the Flood Narrative: The Image of God', in Jason M. Silverman (ed.), *Opening Heaven's Floodgates: The Genesis Flood Narrative, Its Context, and Reception* (NJ: Gorgias Press): 325-344.

GUILLAUME, Philippe

2013 'Sifting the Debris: Calendars and Chronologies of the Flood Narrative', in Jason M. Silverman (ed.), *Opening Heaven's Floodgates: The Genesis Flood Narrative, Its Context, and Reception* (NJ: Gorgias Press): 57-83.

HALLO, William W. & K. Lawson Younger (eds.)

1997 The Context of Scripture, vol. 1: Canonical Compositions from the Biblical World (COS1), (Leiden – New York – Köln: Brill).

KIKAWADA, Isaac M.

1992 'Noah and the Ark', in David N. Freedman (ed. in chief); *The Anchor Bible Dictionary, vol. 4*, (New York - London - Toronto - Sydney - Auckland: Doubleday,): 1123-1131.

SILVERMAN, Jason M.

2013 'Noah's Flood as Myth and Reception: An Introduction', in Jason M. Sil verman (ed.), *Opening Heaven's Floodgates: The Genesis Flood Narrative, Its Context, and Reception* (NJ: Gorgias Press): 1-29.